الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة

للإمام أبي محمد
عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكاتب الدينوري
٢١٣ - ٢٧٦ هـ

قدم له وعلق عليه وخرج أحاديثه
عمر بن محمود أبو عمر

دار الراية
للنشر والتوزيع

[ذكر مسألة اللفظ]

ثم انتهى بنا القول إلى ذكر غرضنا من هذا الكتاب وغايتنا من اختلاف أهل الحديث في اللفظ بالقرآن وتشانئهم وإكفار بعضهم بعضاً وليس ما اختلفوا فيه مما يقطع الألفة، ولا مما يوجب الوحشة لأنهم مجمعون على أصل واحد وهو (القرآن كلام الله غير مخلوق) في كل موضع، وبكل جهة، وعلى كل حال، وإنما اختلفوا في فرع لم يفهموه لغموضه ولطف معناه، فتعلق كل فريق منهم بشعبة منه، ولم يكن معهم آلة التمييز، ولا فحص النظارين، ولا علم أهل اللغة، فإذا فكر أحدهم في القراءة وجدها قد تكون قرآناً لأن السامع يسمع القراءة، وسامع القراءة سامع القرآن. وقال الله عز وجل: ﴿ فاستمعوا له ﴾ وقال: ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾ ووجدوا العرب تسمي القراءة قرآناً. قال الشاعر في عثمان بن عفان رضي الله عنه:

ضحوا بأشمط عنوان السجود به   يقطِّع الليل تسبيحاً وقرانـاً

أي تسبيحاً وقراءة.

وقال أبو عبيد: يقال قرأت قراءة وقرآناً بمعنى واحد، فجعلهما مصدرين لقرأت.

وقال الله تعالى: ﴿ وقران الفجر إنَّ قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ [الإسراء: ٧٨] أي قراءة الفجر.

فيعتقد من هذه الجهات أن القراءة هي القرآن غير مخلوق، ويفكر آخر في القراءة فيجدها عملاً لأن الثواب يقع على عمل لا على أن قرآناً في الأرض.

ويجد الناس يقولون قرأت اليوم كذا وكذا سورة، وقرأت في تقدير فعلت كما تقول ضربت، وأكلت، وشربت، وتجدهم يقولون: قراءة فلان أحسن من قراءة فلان. إنما يزيدون أداء فلان للقرآن أحسن من أداء فلان، وقراءة فلان أصوب من قراءة فلان، وإنما يراد في جميع هذا: العمل. لأنه لا يكون قرآن أحسن من قرآن فيعتقد من هذه الجهة أن القراءة عمل وأنها غير

القرآن، وأن من قال (القراءة غير مخلوقة) فقد قال أن أعمال العباد غير مخلوقة.

فلما وقعت هذه الحيرة، ونزلت هذه البلية فزع الناس إلى علمائهم، وذوي رأيهم فاختلفوا عليهم.

فقال فريق منهم: القراءة فعل محض وهي مخلوقة كسائر أفعال العباد والقرآن غيرها. وشبهوها والقرآن بالضرب والمضروب والأكل والمأكول فاتبعهم في ذلك فريق.

وقالت فرقة: هي القرآن بعينه، ومن قال أن القراءة مخلوقة فقد قال بخلق القرآن واتبعهم قوم.

وقالت فرقة: هذه بدعة لم يتكلم الناس فيها ولم يتكلفوها ولا تعاطوها.

واختلفت عن أبي عبدالله أحمد بن حنبل الروايات[1]، ورأينا كل فريق

---

(١) الروايات عن الإمام أحمد غير متضاربة بل هي تؤول إلى معنى واحد فقط هو أن أفعال العباد مخلوقة وأن كلام الله تعالى ليس بمخلوق فترى الإمام أحمد ينكر على من قال لفظي بالقرآن مخلوق وينكر كذلك عن من قال لفظي بالقرآن غير مخلوق وليس في هذا التضارب بل هما التفصيل الحق (وانظر الروايات عنه في الأسماء والصفات ٣٣٨ ـ ٣٣٩).

قال ابن تيمية: وكان السلف قد أظهروا ذلك لما أظهرت القدرية أن أفعال العباد غير مخلوقة لله، وزعموا أن العبد يحدثها أو يخلقها دون الله. فبين السلف والأئمة أن الله خالق كل شيء أفعال العباد وغيرها، ثم لما أظهر طائفة من المنتسبين إلى السنة أن ألفاظ العباد بالقرآن غير مخلوقة أنكر الإمام أحمد ذلك وبدع من قاله.

وأنكر الأئمة من أصحاب أحمد وغيرهم من علماء السنة من قال: إن أصوات العباد وأفعالهم غير مخلوقة. وصنف البخاري في ذلك مصنفاً، كما أنهم بدعوا وجهموا من قال: إن الله لا يتكلم بصوت، أو أن حروف القرآن مخلوقة. أو قالوا إن اللفظ بالقرآن مخلوق. فرد الأئمة هذه البدعة. (مجموع الفتاوى ٨/٤٠٦ ـ ٤٠٧).

وقال أبو الفضل صالح بن أحمد بن حنبل في كتاب المحنة: تناهى إليَّ أن أبا طالب =

منهم يدعيه ويحكي عنه قولاً، فإذا كثر الاختلاف في شيء ووقع التهاتر في الشهادات به أرجأناه مثل أن ألغيناه.

ومن عجيب ما حكي عنه مما لا يشك أنه كذب عليه إذ كان موفقاً بحمد الله رشيداً أنه قال (ومن زعم أن القراءة مخلوقة فهو جهمي، والجهمي كافر، ومن زعم أنها غير مخلوقة فهو مبتدع وكل بدعة ضلالة)[1] فكيف

= حكى عن أبي أنه يقول: لفظي بالقرآن غير مخلوق. فأخبرت أبي بذلك فقال من أخبرك فقلت فلان فقال: ابعث إلى أبي طالب. فوجهت إليه. فجاء وجاء فوران فقال له أبي: أنا قلت: لفظي بالقرآن غير مخلوق؟ وغضب، وجعل يرتعد. فقال له: قرأت عليك: قل هو الله أحد فقلت لي: هذا ليس بمخلوق.

قال له: فلم حكيت عني أني قلت: لفظي بالقرآن غير مخلوق؟ وبلغني أنك وصفت ذلك في كتابك. وكتبت به إلى قوم. فإن كان في كتابك فامحه أشد المحو، واكتب إلى القوم الذين كتبت إليهم: أني لم أقل هذا وغضب وأقبل عليه فقال: تحكي عني ما لم أقل لك. وجعل فوران يعتذر له.

وانصرف من عنده وهو مرعوب فقال أبو طالب فذكر أنه حك ذلك من كتابه وأنه كتب إلى القوم يخبرهم أنه وهم على أبي عبدالله في الحكاية. مجموع الفتاوى ١٢/٤٢٤، (وانظر الحادثة في الأسماء والصفات للبيهقي ٣٣٨).

قال الإمام البخاري: وسمعت عبدالله بن سعيد يقول سمعت يحيى بن سعيد يقول ما زلت أسمع أصحابنا يقولون أفعال العباد مخلوقة قال البخاري: حركاتهم وأصواتهم وأكسابهم وكتابتهم مخلوقة فأما القرآن المتلو المبين المثبت في المصاحف المسطور في المكتوب، الموعي في القلوب فهو كلام الله تعالى ليس بخلق (الأسماء والصفات ٣٣٢).

(١) إنكار هذه الرواية عن الإمام أحمد لعدم صواب معناها عند ابن قتيبة غير مستقيم فالإمام أحمد رحمه الله أراد نفي النفي المطلق والإثبات المطلق فكلاهما يحتملان معنى خاطئاً وهو الذي سينصره ابن قتيبة بعد قليل وهذه الرواية من الإمام أحمد أثبتها المحققون من أتباعه.

قال ابن جرير الطبري: وأما القول في ألفاظ العباد بالقرآن فلا أثر فيه نعلمه عن صحابي مضى ولا عن تابعي قفا إلا عمن في قوله الشفاء والعفاء وفي اتباعه الرشد والهدى ومن يقوم لدينا مقام الأئمة الأولى: أبي عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل فإن أبا موسى الترمذي حدثني قال: سمعت أبا عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل يقول: =

يتوهم على أبي عبدالله مثل هٰذا القول، وأنت تعلم أن الحق لا يخلو من أن يكون في أحد الأمرين، وإذ لم يخل من ذلك صار الحق في كفر أو ضلال.

ولم أر في هذه الفرق أقل عذراً ممن أمر بالسكوت والتجاهل بعد هٰذه الفتنة، وإنما يجوز أن يؤمر بهٰذا قبل تفاقم الأمر ووقوع الشحناء وليس في غرائز الناس احتمال الإمساك عن أمر في الدين قد انتشر هذا الانتشار وظهر هذا الظهور ولو أمسك عقلاؤهم ما أمسك جهلاؤهم، ولو أمسكت الألسنة ما أمسكت القلوب، وقد كان لهؤلاء أسوة فيمن تقدم من العلماء حين تكلم جهم وأبو حنيفة[1] في القرآن ولم يكن دار بين الناس قبل ذلك ولا عرف ولا

= اللفظية جهمية. يقول الله: حتى يسمع كلام الله. ممن يسمع؟

قال ابن جرير: وسمعت جماعة من أصحابنا، لا أحفظ أسماءهم، يحكون عنه أنه كان يقول: من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال: غير مخلوق فهو مبتدع.

قال ابن جرير: ولا قول في ذلك عندنا يجوز أن نقوله غير قوله، إذ لم يكن لنا إمام نأتم به سواه، وفيه الكفاية والمقنع، وهو الإمام المتبع. مجموع الفتاوى ١٢/٤٢٣.

قال ابن تيمية: وكان أحمد وغيره من السلف ينكرون على من يقول: لفظي بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق. يقولون من قال هو مخلوق فهو جهمي ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع فإن اللفظ يراد به مصدر لفظ يلفظ لفظاً ويراد باللفظ الملفوظ، وهو نفس الحروف المنطوقة، الفتاوى ١٢/٤٢٤، قلت والسلف على الجملة كانوا على التفصيل (أنظر الأسماء والصفات ٣٤٠).

قال ابن القيم: وكان يقول (أي أحمد) من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع (مختصر الصواعق ٢/٣١٣).

(١) أدراج أبا حنيفة مع جهم فيه شيء من المجازفة فبالرغم من وجود الروايات الصحيحة عن بعض الأئمة أن أبا حنيفة استتب من الكفر إلا أن هذه الإستتابة قد فسرت بأن أبا حنيفة تكلم بكلام فقال أصحابه هٰذا كفر فقال أتوب، (أنظر السنة لعبدالله بن أحمد فقرة ٣٥٦)، فهٰذا لا يقدح شيئاً في أبي حنيفة.

وقد صح عن الإمام أحمد أنه قال: لم يصح عندنا أن أبا حنيفة كان يقول القرآن مخلوق، (تاريخ بغداد ١٣/٣٨٤).

وروى البيهقي في الأسماء والصفات (٣٢١) أن محمد بن سابق قال سألت أبا يوسف =

كان مما تكلم الناس فيه فلما فزع الناس إلى علمائهم لم يقولوا هٰذه بدعة لم يتكلم الناس فيها ولم يتكلفوها، ولكنهم أزالوا الشك باليقين وجلوا الحيرة وكشفوا الغمة وأجمع رأيهم على أنه غير مخلوق فأفتوهم بذلك وأدلوا بالحجج والبراهين، وناظروا وقاسوا واستنبطوا الشواهد من كتاب الله عز وجل كقوله: ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقوله: ﴿ إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ﴾ [طٰه: ١٤].

وأما قولهم: هذه بدعة لم يتكلم الناس فيها فلا تتكلفوها فإنما يفزع الناس إلى العالم في البدعة لا فيما جرت به السنة وتكلم فيه الأوائل ولو كان هٰذا مما تكلم فيه لاستغني عنهم.

الكلام لا يعارض بالسكوت، والشك لا يداوى بالوقوف، والبدعة لا تدفع بالسنة وإنما يقوى الباطل أن تبصره وتمسك عنه.

وإن كان الوقوف في اللفظ بالقرآن حتى لا يقال فيه مخلوق أو غير مخلوق هو الصواب فما حجتنا على الواقفة(١) في القرآن ولم جعلناهم شكاكاً وجعلناهم ضلالاً، وأكفرهم بعض أهل السنة، وأكفر من شك في كفرهم، هل الأمر في ذلك وفي هذا إلا واحد.

فإن قيل إن الثوري وابن عيينة وابن المبارك وأشباههم لم يقفوا.

= فقلت: أكان أبو حنيفة يقول القرآن مخلوق؟ قال معاذ الله ولا أنا أقوله. فقلت أكان يرى رأي جهم؟ فقال معاذ الله ولا أنا أقوله. قال البيهقي: رواته ثقات.

وقال أبو يوسف: كلمت أبا حنيفة رحمه الله تعالى سنة جرداء في أن القرآن مخلوق أم لا؟ فاتفق رأيي ورأيه على أن من قال القرآن مخلوق فهو كافر.

قال البيهقي: قال أبو عبدالله رواة هذا كلهم ثقات، الأسماء والصفات /٣٢٢.

(١) الواقفة هم الذين أبوا أن يقولوا أن القرآن مخلوق أو غير مخلوق فتوقفوا في ذلك فعدهم أهل العلم من أهل البدع وخرجوا أن قولهم هو قول الشكاك قال محمد بن يحيى: ومن وقف وقال لا أقول مخلوق ولا غير مخلوق فهو ضاهى الكفر. (مختصر الصواعق ٢/٣٠٨).

قلنا: لكل زمان رجال، فأنت ثوري زماننا وابن عيينتنا فقل كما قالوا ونحن راضون منك أن تقول ومعقول أن نقول لك من أين قلت.

وكل من ادّعى شيئاً أو انتحل نحلة فهو يزعم أن الحق فيما ادّعى وفيما انتحل خلا الواقف الشاك فإنه يقر على نفسه بالخطأ، لأنه يعلم أن الحق في أحد الأمرين اللذين وقف بينهما، وأنه ليس على واحد منهما، وقد بلي بالفريقين المستبصر المسترشد وبإعناتهم ومحنتهم وإغلاظهم لمن خالفهم وإكفاره وإكفار من شك في كفره، فإنه ربما ورد الشيخ المصر فقعد للحديث وهو من الأدب غفل، ومن التمييز ليس له من معاني العلم إلا تقادم سنه، وأنه قد سمع ابن عيينة وأبا معاوية ويزيد بن هارون، وأشباههم فيبدأونه قبل الكتاب بالمحنة، فالويل له إن تلعثم أو تمكث أو سعل أو تنحنح قبل أن يعطيهم ما يريدون فيحمله الخوف في قدحهم فيه، وإسقاطهم له على أن يعطيهم الرضا فيتكلم بغير علم ويقول بغير فهم فيتباعد من الله في المجلس الذي أمل أن يتقرب منه فيه. وإن كان ممن يعقد على مخالفتهم سام نفسه إظهار ما يحبون ليكتبوا عنه.

وإن رأوا حدثاً مسترشداً أو كهلاً متعلماً سألوه فإن قال لهم: أنا أطلب حقيقة هٰذا الأمر، وأسأل عنه ولم يصح لي شيء بعد، وإنما صدقهم عن نفسه، واعتذر بعذره، الله يعلم صدقه، وهم يعلمون أنه لم يكلفه إذا لم يعلم إلا أن يسأل ويبحث ليعلم، كذبوه وآذوه وقالوا: خبيث فاهجروه ولا تقاعدوه.

أفترى لو كان ما هم عليه من اعتقادهم هذا الأمر، أصل التوحيد الذي لا يجوز للناس أن يجهلوه وقد سمعوه من رسول الله ﷺ مشافهة كان يجب أن يبلغ فيه هذه الغاية فكيف وهم لو سئلوا من أين قلتم ما رجعوا في ذلك إلى وثيقة من حديث يأثرونه أو قول إمام من العلماء يحسن تقليد مثله أو قياس يطردونه وإنما هو رأي رأوه وقد يخطىء الرأي، وظن ظنوه وأجهل الناس من جعل ظنه لله ديناً.

[فصل مسألة اللفظ]

وعدل القول فيما اختلفوا فيه من القراءة واللفظ بالقرآن: أن القراءة لفظ واحد يشتمل على معنيين:

أحدهما: عمل ـ والآخر: قرآن.

إلا أن العمل لا يتميز من القرآن كما يتميز الأكل من المأكول فيكون المأكول الممضوع والمبلوع، ويكون الأكل المضغ والبلع.

والقرآن لا يقوم بنفسه وحده كما يقوم المأكول بنفسه وحده، وإنما يقوم بواحدة من أربع[1]: كتابة أو قراءة أو حفظ أو استماع، فهو بالعمل في الكتابة قائم، والعمل خط وهو مخلوق، والمكتوب قرآن وهو غير مخلوق، وهو بالعمل في القراءة قائم والعمل تحريك اللسان واللهوات بالقرآن وهو مخلوق، والمقروء قرآن وهو غير مخلوق.

وهو بالاستماع قائم في السمع، والاستماع عمل وهو غير مخلوق، والمسموع قرآن غير مخلوق.

ومثل هٰذا وإن كان لا مثل للقرآن إلا أنه تقريب منا لما ذكرناه إلى فهمك مثل لون الإنسان لا يقوم إلا بجسمه ولا نقدر أن نقر اللون في وهمك حتى يكون متميزاً من الجسم، وكذلك القدرة لا نقدر أن نفردها عن الجسم، وكذلك الاستطاعة والحركة كل واحدة منهما لا تفرد، وإنما تقوم بالجسم والجارحة ولا تنفرد عنهما، كذلك القرآن يقوم بتلك الخلال الأربع التي ذكرناها ولا يستطيع أحد أن يتوهمه منفرداً عنها، فإذا قلت قرأت أو تلوت أو

(١) قال إبراهيم الحربي: كنت جالساً عند الإمام أحمد بن حنبل إذ جاءه رجل فقال يا أبا عبدالله إن عندنا قوماً يقولون إن ألفاظهم بالقرآن مخلوقة. قال أبو عبدالله: يتوجه العبد لله تعالى بالقرآن بخمسة أوجه وهو فيها غير مخلوق: حفظ بقلب، وتلاوة بلسان، وسمع بأذن، ونظرة ببصر، وخط بيد، فالقلب مخلوق، والمحفوظ غير مخلوق والتلاوة مخلوقة والمتلو غير مخلوق والسمع مخلوق والمسموع غير مخلوق، والنظر مخلوق والمنظور إليه غير مخلوق والكتابة مخلوقة والمكتوب غير مخلوق. (مختصر الصواعق ٢ / ٣١٤).

لفظت دل قولك على فعل، وقرآن كل واحد منهما قائم بالآخر غير متميز منه لأن الصوت وتحريك اللسان لا يكون قراءة حتى يحمله الصوت واللسان وليس سائر الأفعال والمفعولات هكذا ألا ترى أنك تقول شتمت وسببت وقذفت فيدل قولك على فعل ومشتوم ومسبوب ومقذوف إلا أن كل واحد قائم بنفسه متميز من الآخر فلهٰذا قلنا: إن القراءة شيئان، وكذلك التلاوة واللفظ وقلنا الشتم شيء واحد.

فإن قال فما شبه هٰذا؟

قلنا رجلان نظرا إلى جمرة حمراء فقال أحدهما: هي جسم وقال الآخر: هي نار.

وتجادلا في ذلك وشرق الأمر بينهما حتى حلف كل واحد بالطلاق على ما قال ثم صارا إلى الفقيه. فقالا: إنا اختلفنا في جمرة فقال أحدنا: هي جسم وقال الآخر: هي نار وتمادينا في ذلك حتى حلف كل واحد منا بالطلاق على ما ادّعى فقال الفقيه لكل واحد منهما: صدقت. ولكن ذكرت شيئاً ذا معنيين بأحد معنييه. فالجمرة مثل القراءة لأنهما اسم واحد يجمع معنيين: الجسم والنار كما أن القراءة تجمع معنيين العمل والقرآن ولو كان أحد المختلفين قال: هي جسم ونار قد جمع لها الصنفين كما أن من قال القراءة عمل وقرآن قد جمع لها الصنفين وكذلك لو اختلف اثنان في نجم فقال أحدهما: هو نار وقال الآخر: هو نور كانا جميعاً صادقين، لأن النجم اسم ذو معنيين: نار ونور.

وكذلك لو اختلف اثنان في أكل إنسان فقال أحدهما: هو مضغ، وقال الآخر هو بلع كانا جميعاً صادقين. لأن أكل الإنسان اسم ذو معنيين مضغ وبلع وكذلك لو اختلفا في القتل فقال أحدهما: هو جرح. وقال الآخر: هو موت. لأن القتل اسم ذو معنيين عمل وموت.

وقد بقيت بعدما بينت لطيفة قد يغلط في مثلها وهي أن السامع إذا

سمع قائلاً يقول: قراءتي للقرآن ولفظي بالقرآن، قراءة القرآن مفردة عن القرآن واللفظ منفرد عن القرآن، توهم أن كل واحد منهما غير ممازج للقرآن وليس كذلك وإنما قوله للقرآن بالقرآن تمييز للقرآن من غيره لأن القارىء قد يقرأ غير القرآن وهذا من أغمض ما مر وأدقه فتأمله وتدبره حتى تفهمه وسأزيده إيضاحاً:

كأن رجلاً يسمى محمداً قرأ فسمعه رجل فقال عبدالله: ماذا قرأ.

فيقول زيد: القرآن.

وكذلك لو قال: ما أحسن لفظ محمد.

فقال عبدالله: وبماذا لفظ؟

فيقول له زيد: بالقرآن.

فالقرآن ههنا إنما هو تمييز وتبيين وكل واحد من القرآن واللفظ يجمع معنيين عملاً وقرآناً.